د. طلعت الرفاعي

فتاة من ربوع القدس
«تهوى الليل والقمرا»

obeikandl.com

عندما نزحت عن الأرض ـ لم يكن معها سوى منديل أخضر. وبينما كانت تطوي المسافات بخطواتها اللاهثة.. انحنت على الأرض.. فأخذت حفنة من ترابها، وضعتها في منديلها الأخضر.

وحينما أدركت التعب.. ارتمت على كتف جبل رابض، وراحت تتطلع إلى القمر الذي انطلق يغمر الكون بشلالاته المتلألئة، وهنا خيل إليها أنها تسمع صوتاً يسألها عن هويتها الضائعة وكانت قصة حياة.. فجّرها حب الأرض.

ماذا تقول طلعت الرفاعي عن نشأتها:

«نشأت في بيت أثري عتيق، يهجع في حي هادىء، من أحياء القدس القديمة. كانت تتربع في صحنه الواسع شجرة زيتون وياسمينة جريئة.. امتدت عرائشها.. فسترت معظم مساحة الجدار، وكانت أزهارها الثلجية تضمخ أرجاء المنزل بالعطر، وتلوح في ليالي القمر وكأنها قطعة من السماء المرصعة بالنجوم.

كان شمل الأسرة يلتئم كل مساء، وكنا في ليالي الصيف نجلس إلى العشاء في ظل الياسمينة.. وكنا ثلاثة صبية.. سعيد ومروان ومحمد، تتلوهم ثلاث بنات.. ليلى وسلمى وهناء، وكنت وسطى إخوتي وكانت أمي

تتفانى في رعايتنا.. وإعداد ألوان الطعام لنا، وكان والدي يعود بعد عمل متواصل طوال النهار، حاملاً أكياس الفاكهة اليانعة مما تجود به تربة أرضنا المعطاءة.

كان بيتنا يضم قاعة شرقية واسعة.. تتناثر مقاعدها المخملية.. هنا وهناك، وتنبعث الأنوار الخافتة من قناديلها الحالمة، وفي هذه القاعة وضعت بعض الآلات الموسيقية التي كان والدي قد جلبها لقضاء أوقات الفراغ. كانت أختاي ليلى وهناء.. تفضلان العزف على العود والبيان وكنت أنا أميل إلى الكمان، ويستهويني قوسها الحاني.. حين يلامس أوتارها المشدودة.. وكأنها سياط قلب مشبوب.

كان في هذه القاعة بعض التحف الفنية التي تمثل تاريخ مدينتنا، وعلى جدرانها بعض الرسوم والصور التاريخية التي تعكس تطور القضية الفلسطينية، وما رافقها من أحداث تاريخية واجتماعية.. هنا لوحة للمسجد الأقصى.. الذي يتوجه إليه المسلمون من شتى أنحاء الدنيا.. وهنا رسم لجبل الزيتون الذي تحطمت عليه جيوش الغزاة، وعلى هذا الجبل.. سقط عدد من الشهداء المسلمين أثناء مقاومة الغزو.. منهم رابعة العدوية.. وسلمان الفارسي.

هنا على الجدار المقابل.. صورة زيتية لبيت لحم الذي تقع على بعد ١٧ كم جنوب القدس، والذي تحيط بها حقول الزيتون والبساتين الخضراء، في هذه البقعة تقوم كنيسة المهد التي ولد فيها السيد المسيح.

في هذا الرسم.. تبدو كنيسة القيامة.. التي يقدسها الجميع.. وجميع المسيحيين في العالم، في هذه اللوحة التاريخية.. تبدو موقعة «عين جالوت» تلك المعركة الحاسمة التي هزم فيها صلاح الدين.. التتار.

في هذه القاعة الرحبة.. كنت أحيا تاريخ بلادي، وكنا نستقبل فيها ضيوفنا في أغلب أمسياتنا، حيث نتناول معهم القهوة وبعض الحلويات التي امتازت والدتي بتحضيرها.

كانت جلساتنا أشبه بندوات تدور فيها موضوعات متنوعة في السياسة والأدب والشعر، وفي شتى مجالات الفكر، وكان أصدقاؤنا من أعمار مختلفة.. وثقافات متنوعة. كان بينهم الشيخ الذي عاصر الأحداث، في هذا الجو عرفت الكثير عن حقيقة وطني.. فلسطين.

عرفت أنها تستمد اسمها من الفلسطينيين الذين عاشوا فيها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

عرفت أن القاطنين الأوائل بهذه البقعة كانوا من القبائل الرحل، وفي القرن العشرين قبل الميلاد.. جاء الكنعانيون يستوطنون السهول والبقاع الساحلية.. فأنشأوا المدن والقرى، واهتموا بتنمية ثقافتهم وأن الفلسطينيين هم سلالة الكنعانيين الذين وجدوا فيها منذ أكثر من أربعة آلاف سنة. لقد تأكدت لي الحقيقة الناصعة التي طالما طمسها الاستعمار والصهيونية.. أمام الرأي العالمي، مدَّعين أن الإسرائيليين كانوا أول من سكن فلسطين. لقد تبين لي أن الإسرائيليين ليسوا السكان الأوائل لفلسطين.. بل كانوا غزاة، وواجهوا هناك أهلاً قاطنين.. لهم ثقافة قائمة هم الفلسطينيون سليلو الكنعانيين.

ولم يحدث قط أن أذعن الفلسطينيون للغزاة أذعاناً كاملاً، إذ إنهم استبقوا سلطتهم على سهولهم الساحلية الممتدة على طول البحر، أما الإسرائيليون فقد احتلوا بقية البلاد، وأنشأوا فيها مملكة إسرائيل لمدة قرنين ثم انقسمت إلى مملكة إسرائيل في الشمال، ومملكة يهوذا في الجنوب.

ثم اجتاح الآشوريون المملكة الشمالية في الفترة (٧٣٣ ـ ٧٢١) ق.م. واندثرت إسرائيل في عام (٧٢١ ق.م.) ولم يحدث أبداً أن استردت إسرائيل استقلالها مرة أخرى.

وتعاقب بعد ذلك الآشوريون.. والبابليون على البلاد ثم الفرس.. والإغريق والرومان.

وبين القرنين الرابع والسابع من عصرنا.. أصبحت فلسطين تحت

النفوذ المسيحي، فبنى الامبراطور قسطنطين الأول كنيسة القبر المقدس.. وأنشأت أمه هيلانة كنيسة الميلاد في بيت لحم.. وكنيسة القيامة في القدس.

وفي سنة ٦٣٧ بعد الميلاد وقع الفتح الإسلامي العربي لفلسطين - وحين انتصر صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين عام ١١٨٧ للميلاد.. واستعاد فلسطين، بقي المسيحيون الأصليون يعيشون في فلسطين إلى جانب المسلمين.

وفي سنة ١٥١٨م فتح الترك فلسطين وظلوا يحكمونها حتى ١٩١٧، غير أن الفتح التركي لم يحدث أي تغيير في روح الشعب والطابع العربي الأصيل للبلاد، فبقي السكان عرباً، وعلى الرغم من تعاقب الحروب والغزوات وأعمال الفتح، فإن العناصر الأصلية الوطنية من السكان بقيت دون أن ينالها أي تغيير - لقد بقي سكان فلسطين أصلاء وقد تعربوا نتيجة للفتح العربي في القرن السابع.

وهم سلالة الكنعانيين.. السكان الأُوَل.. الأصليين في البلاد، وقد عاشوا بصورة مستمرة في بلادهم منذ أكثر من أربعين قرناً مضت، ولقد انصهرت في العرق الفلسطيني عناصر من أجناس مختلفة، غير أن العرق الفلسطيني الذي يجمع كلاً من المسلمين والمسيحيين.. ظل يؤلف العنصر الرئيسي للسكان، إلى أن قامت إسرائيل في عام ١٩٤٨م بتشريد السكان الأصليين من ديارهم.

أما اليهود.. فإنهم لم يندمجوا في العنصر الذي تكون منه أهل فلسطين الأصليون، وإنما كانوا مجرد طائفة صغيرة، ويروي بنيامين التوديلي الحاج اليهودي الذي زار الأرض المقدسة نحو ١١٧٠ مرة.. أنه لم يصادف في كل فلسطين إلاّ ١٤٤٠ يهودياً.

من هذه المناقشات التي كانت تدور أمامي.. في جو بيتنا الآمن.. كنت أتساءل: إذا كانت هذه الأقوام المختلفة جميعها قد توالت بالغزو والفتح على أرض فلسطين - برغم صمود الشعب الفلسطيني ومحافظته على

أصالته الذاتية.. فلماذا إسرائيل وحدها تدَّعي الحق في فلسطين..؟!

ولماذا لا يكون لغيرها من الأقوام أيضاً الحق في ادِّعاء العودة إلى استرجاعها؟!

ولكن الحقيقة التي لا تقبل الجدل ولا يرضى العقل بسواها.. هي أن السكان الأُوَل.. الأصليين، هم وحدهم الذين من حقهم أن يكونوا أصحاب البلاد الشرعيين. لقد تبين لي من خلال القصة الطويلة الملطَّخة بالدماء للحروب والغزوات التي نزلت بالأرض المقدسة.. مدى صمود الشعب الفلسطيني، ومقاومته التي استطاع بها أن يحافظ على هويته الأصلية الصلبة التي لا ترضى بغير الحق.. والعدالة.. مهما عز الفداء، ومهما جرت أنهار الدماء.

وهكذا تمر السنة تلو السنة.. وأزداد تفهماً لقضية وطني، وينهي إخوتي الصبية تحصيلهم الثانوي وينتسب سعيد ومروان إلى الكلية الحربية، وينتسب محمد إلى كلية الطب.. وتتفرغ أختي الكبرى ليلى إلى تدبير المنزل، كما تتجه هناء إلى الموسيقى.. أما أنا.. فاكتشفت ميلي إلى الكتابة.. بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني.. المعاناة والانصهار.

وهكذا كانت.. وأصبحت الثائرة.. المناضلة العربية التي تأبى حياة الخضوع والذل. وتنضم إلى كتائب الأحرار.. لتسجل في تاريخ الكفاح.. أروع صفحات الصمود والإباء.

وتمضي في الطريق الطويل الوعر.. فتصاب بطعنة أثيمة غادرة، ويلقي بها المحتل بين جدران السجن القاتم.. حيث يذيقها أقسى صنوف الاضطهاد والتعذيب، وهنا ينتابها شعور قوي رائع، إنه شعور الحر البطل الذي كل خطب أمام عينيه يهون في سبيل كرامة الوطن وحريته.

وهناك في غياهب السجن المدلهمة ـ تضع يداً على جرحها المتوقد النازف، توقف بها انسكاب دمه الذكي، وتمسك باليد الأخرى القلم لتخط رسالة إلى الثوار على خط النار.. فتقول:

أنا هنا.. هنا..

من غرفة السجن..

مظلمة رهيبة..

هذي السطور.. أخطها..

في صمت وحدتي الكئيبة..

إنها تقول:

إن مقاومة الظلم وعدٌ محتم مع النصر.. يا للهول.. ماذا أرى؟!.. إنه مناضل يحضر بغتة في زي المقاومة.. من أنت بحق الله؟.. قل من أنت يا بطل؟.. وتمتزج الصور بالماضي البعيد، ويتوقد الجمر، ويتألق القمر.. أكثر، فتتجلى طبيعة بلادي تحت ضوئه الساطع في أروع مشهد عرفه السحر الحلال.

وفي غمرة هذه الرؤى المتوهجة، شعرت أنني أسمع صوتاً يحمل أصداء وجيب عميق ينساب عبر تلك الرؤى ويقول:

أنا..

لو كنت تسأل...؟

مرة عني...

فتاة..

من ربوع القدس..

تهوى الليل.. والقمرا..

تحب جبالها الشمَّاء..

والغابات والمطرا..

وتنسج من حرير الشمس..

شالاً أحمرا عطرا..

تمايل تحته.. العنق..

وأوج بوردة الشفق..

غداة البحر في الأسحار..

يسكر فوق ما سكرا..

فتاة من ربوع القدس..

تهوى الليل والقمرا..

* * *

هي: الشاعرة الفلسطينية الدكتورة طلعت الرفاعي، حائزة على دكتوراه في الحقوق وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية من جامعة باريس.

قامت بدراسة حول الآداب العالمية في جامعة السوربون.

اشتركت في شتى مهرجانات الأدب والشعر.

لها عديد من الدواوين السياسية ـ والقومية والعاطفية.

أول سيدة تعمل في جامعة الدول العربية.

عضو في عديد من الاتحادات الدولية والعربية.

«إنه وعدٌ محتم بالنصر».

ـ وعبرت الدكتورة طلعت الرفاعي

بعد العودة إلى فلسطين

ـ فهل يا ترى تتغير لغة الشعر

في إرهاصات فنها بعد العودة؟

* * *